﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا ٩٩﴾ [النّساء: 97 - 99]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين أجر المقبلين على الجهاد، وعقاب القاعدين المستكينين

لَمَّا ذَكَرَ اللّٰهُ تعالى ثوابَ مَنْ أَقْدَمَ على الجهاد؛ أَتْبَعَهُ بِعِقابِ مَنْ قَعَدَ عَنْهُ ورَضِيَ بالسُّكونِ في دَارِ الكُفْرِ، والآية عامّة تتناول مجموع المؤمنين الّذين أقاموا بين المشركين، وهم قادرون على الهجرة، وليس لهم في موطنهم قدرة على إقامة أمور دينهم، نظرا للحصار والإيذاء الّذي يتعرّضون له بالغدوّ والإبكار، في جوار الكفّار.

فهم ظالمون لأنفسهم، مرتكبون حراما بالإجماع، وظلمهم لأنفسهم متجسّد في كونهم يتركون الحقّ تقية وخوفا من الأذى المسلّط عليهم، وما يسامون من خسف وما يلاقون من هوان[1]، إلّا من له عذر، فهو معفوٌّ عنه، وذلك كلّه على طريقةِ القرآنِ الكريمِ في ذِكْرِ المُتَقابِلَات؛ كالجمع بينَ الثَّوابِ والعقابِ، والوعدِ والوعيدِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: جمع ملك، وهم مخلوقات من عالَم غَيْبِيّ، خَلَقَهُمُ اللّٰهُ سبحانه مِن نُورٍ، وجعلَهم طائعين لَهُ لا يَعصُون أمرَه[3]،

(1) حومد، أيسر التّفاسير: 1/88.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/195.
(3) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/59.

الملك من الملائكة واحد وجمع، قال الكسّائي: أصله مألك بتقديم الهمزة، من الألوك وهي الرّسالة، ثمّ قلبت وقدّمت اللّام فقيل ملأك، ثمّ تركت همزته لكثرة الاستعمال، فقيل ملك، فلما جمعوه ردوها إليه، فقالواْ: ملائكة وملائك أيضا[1]، وسُمُّواْ ملائكةً؛ لأنَّهم يُبلِّغُونَ رسائلَ الله تعالى إلى مَنْ يشَاءُ مِن عبادِهِ[2]، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1].

2) ﴿ظَالِمِيٓ﴾: الظَّاءُ واللَّامُ والميمُ تَدُلُّ تصاريفُها على حَجْبِ ما يَنْبَغِي أو مَا يُسْتَحَقُّ؛ أي: مَنعه أو انتِقَاصه[3].ومنهُ الظَّلَامُ؛ لحجبِهِ الرُّؤْيَةَ، والأرضُ المظلومةُ: الّتي لم يَنَلْها المطرُ[4].والظَّالمُ: المُتَّصِفُ بالظُّلْمِ، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشَّيْءِ في غير مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمَّا بنُقْصانٍ أو بزِيادَةٍ، وإمَّا بعُدولٍ عَن وَقْتِه أو مكانِه[5]، والظّالم لنفسه هو الّذي يوردها المهالك، بعصيان أمر الله، وارتكاب المفاسد الّتي تعود عليها بالسّوء والوبال في الدّارين.

3) ﴿مُسۡتَضۡعَفِينَ﴾: الضَّادُ والعينُ والفاءُ تَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ: عدم القُوَّةِ، وزيادةِ مِثْلِ الشَّيءِ فيهِ[6].ومِنَ الأوَّلِ: الضَّعْفُ والضُّعْفُ، والضَّعفُ يكون في النَّفْسِ، وفي البدَنِ، وفي الحالِ[7]، والمُسْتَضْعَفُ: الّذي يَتَضعَّفُهُ النَّاسُ، ويَتَجبَّرون عليهِ في الدُّنيا؛ لفَقْرٍ ورَثاثَةِ الحالِ[8]، والمرادُ بالمُسْتَضْعَفِين في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ العَجَزَةُ عَنِ الهجرةِ، بسبَبِ الإعْسارِ وقِلّةِ الحِيلةِ، وسُوءِ البَصَرِ والمعرفةِ بالطَّريق مِن أرضهم – الّتي هي أرضُ شِرْكٍ – إلى أرض الإسلام[9].

4) ﴿وَٰسِعَةً﴾: الواوُ والسِّينُ والعَيْنُ تدُلُّ تصَاريفُها على ضِدِّ الضِّيقِ والعُسْرِ[10]، ومِنْهُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (ملك).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/434، والأنباريّ، الزّاهر: 2/254.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم)، والزّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(5) ابن سِيده، المحكم: (ظلم)، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضعف).
(7) الرّاغب، المفردات: (ضعف).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضعف).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 9/101.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وسع).

التَّوسيعُ، وهو ضِدُّ التَّضْييقِ[1].ومِنْهُ: السَّعَةُ، وتكونُ في الأمكنَةِ والأحوالِ والأفعالِ[2]، ففي المكانِ؛ نحوُ قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾، وفي الأحوال: السَّعَةُ بمعنى الغِنى والرّفاهيَةِ[3]، وفي الأفعال، كَسَعَةِ الجُودِ، وفي اتّساع الأرض مجالٌ للمغادرة، وفرصة للهجرة، حيث يفرّ المؤمن بدينه، ليجد الحريّة في العقيدة، والفسحة لممارسة شعائر دينه، دون ضغط ولا مضايقة، وليس المقصود ترك الوطن، لأنّ حبّ الأوطان من صريح الإيمان، وحين يأتي نصر اللّه، وتتاح الفرصة للرّجوع إلى الوطن، يرجع المهاجر أكثر شوقا، وأعمق حبّا لوطنه، وقد قال الشّاعر:

بِلَادٌ أَلِفْنَاهَا عَلَى رَغْمِ مَا بِهَا *** وَقَدْ يُؤْلَفُ الشَّيْءُ الّذِي لَيْسَ بِالحَسَنْ

وَتُسْتَعْذَبُ الأَرْضُ التِّي لَا هَوَا بِهَا *** وَلَا مَاؤُهَا عَذْبٌ وَلَكِنَّهَا وَطَنْ[4].

5) ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: الهمزةُ والواوُ والياءُ تَدُلُّ تصريفاتُها على مَعْنَيَيْنِ: التَّجمُّعِ، والإشفاقِ[5]، ومِنَ الأوَّلِ التَّأوِّي؛ وهو التَّجمُّعُ، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[6]. والمَأْوَى: المكانُ الّذي يُنْصَرَفُ إليه ويُقامُ فيه[7]، والمَأْوَى في قول اللّه تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾: المَصيرُ الّذي يَأْوُون إليهِ يومَ القِيامَةِ[8]، ولمّا تكون النّار هي المأوى، فقد خسر صاحبها عقباه، وكان في أشدّ العذاب مأواه، وهذا من الأيلولة إلى سوء العاقبة، الّتي بشّعها السّياق، وجعلها عقوبة لهذا الصّنف الخانع المتخاذل.

6) ﴿مَصِيرًا﴾: الصَّادُ والياءُ والرَّاءُ تدورُ اشتقاقاتُها على المآلِ والمَرجِعِ[9]، ومِنْهُ المَصِيرُ؛ وهو المَوضعُ الّذي ترجِعُ إليه المياهُ[10]، والمَصيرُ: المرجِعُ والمآلُ[11].وقولُه تعالى:

(1) الجوهريّ، الصحاح: (وسع).
(2) الرّاغب، المفردات: (وسع).
(3) ابن سِيده، المحكم: (وسع).
(4) الأبشيهي، المستطرف: 3/375.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(6) الخليل، العين: (أوى).
(7) ابن أبي نصر الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 7/494.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صير).
(10) ابن سيدَه، المحكم: (صير).
(11) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (صير).

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ معناه: ساءتْ جَهَنَّمُ لِأَهْلِها الّذين صارُوا إليها مَرجِعًا ومَسْكنًا ومأوًى[1]، وحيث أنّ الإسلام يبغي لأهله العزّة، وسعادة المصير، فإنّ هؤلاء الْقَاعِدينَ المتخلفين عن الجهاد في سبيل اللّه، ولم يدركواْ أنّ أرض اللّه واسعة، كي يفرّواْ من أرضهم إلى أرض أخرى، يأمنون فيها على دينكم؟، وانصاعواْ للكفر وظاهروه، قد فقدوا العزّة، وضاعت منهم الكرامة، ولذلك كان مثواهم النّار، وقبح هذا المرجع والمآب[2].

7) ﴿حِيلَةَ﴾: الحاءُ والواوُ واللّامُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على تحرُّكٍ في دَوْرٍ، ومِنْهُ سُمِّيَ العامُ حَولًا؛ لأنَّه يَحولُ، أي: يَدُورُ[3]، ومِنْهُ الحَيلةُ؛ وهي حِجارَة تنحدِرُ مِن جَوَانِب الجَبَل إِلَى أَسْفَله حَتَّى تَكْثرَ، ومِنْ كلام العرب قولُهم: أَتَيْته فَوجدتُ النَّاسَ حولَه كالحَيْلةِ، أَيْ: مُحْدِقين بِهِ كإِحْداقِ تِلْكَ الحِجَارَةِ بِالجَبَلِ[4].ومن هذا الباب: الحِيلَةُ؛ لأنَّه يدورُ حوالَي الشَّيءِ ليُدْرِكَهُ[5]، والحِيلَةُ: لَفْظٌ جامِعٌ لأنواعِ أسبَابِ التَّخلُّصِ[6]، واستطاعَةُ الحِيلةِ: وُجْدانُ أسبابِ الهجرةِ، وما تتَوَقَّفُ عليهِ[7].

8) ﴿عَسَى﴾: عَسَى: كلمةُ ترَجٍّ، وهي دالَّةٌ على قُربٍ وإمكانٍ[8]، وعسى مِنَ اللّهِ تعالَى واجبةٌ في القرآنِ الكريمِ كُلِّهِ، إلّا في موضعٍ واحدٍ، وهو قولُ اللّه تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾[9] [التّحريم: 5]، وقال أبو عبيدة: عسى من اللّه إيجاب، فجاءت على إحدى لغتي العرب، لأن عسى في كلامهم رجاء ويقين، وأنشد لابن مقبل، في معنى ظنّى بهم يقين:

ظَنِّي بِهِمْ كَعَسَى وَهُمْ بِتَنُّوفَةٍ *** يَتَنَازَعُونَ جَوَائِزَ الأَمْثَالِ[10].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/101.
(2) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 94.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حول).
(4) ابن سيده، المحكم: (حيل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حول).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/347، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 3/216.
(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/92.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسو/ي).
(9) الجوهريّ، الصحاح: (عسا).
(10) الجوهريّ، الصحاح: (عسا).

9) ﴿يَعْفُوَ﴾: العَيْنُ والفاءُ والواوُ تَدُلُّ كثيرٌ من تصاريفِها على تَرْكِ الشَّيْءِ[1]، ومنهُ: العَفْوُ؛ وهي الأرضُ الّتي لا أثَرَ فيها[2]، كأنَّها تُرِكَتْ وأُهْمِلَتْ.والعَفْوُ عَنِ الذَّنبِ: تَرْكُ العُقُوبَةِ عليهِ[3]، وحقيقةُ العَفْوِ شرعًا: التَّجاوزُ عَنِ العَبْد بغُفران ذنُوبه، وَعدمُ مؤاخذتِه بِمَا اقترفَه منها[4]، وفي أسماءِ اللّه تعالى (العفو) هو فعول، من العفو، وهو التّجاوز عن الذّنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطّمس، وهو من أبنية المبالغة، يقال: عفا يعفو عفوا، فهو عاف وعفو[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مــآل الـرّاضـين بالذّل والهوان، وقـد كـان لـهـم أن يهاجروا دون توان

إنَّ الّذين تَقبضُ الملائكَةُ أرواحَهم، وقد ظَلَمُوا أنفسَهم بِتَرْكِهمُ الهجرةَ إلى دارِ الإسلامِ وبقَائِهم في دار الكُفْر، تَقُولُ لَهُم الملائكةُ تَوبيخًا لهم وتَقريعًا: على أيِّ حالٍ كُنْتُم مِن أمرِ دينِكُمْ؟ فيَقُولُون معتذرينَ: كُنَّا ضُعَفاءَ في أَرْضِنا، عاجزين عَن دَفْعِ الظُّلم عَن أنفسِنا، فتقُول لَهُمُ الملائكَةُ توبيخًا: أَلَم تَكُنْ أرضُ اللّهِ واسعةً، فتَنْتَقِلُوا مِن أرضِكم إلى دارٍ أخرى، تأمنُونَ فيها على دينِكُمْ؟! فأولئك مَأْوَاهُمُ النَّارُ، تَكون لَهُمْ مَرجعًا ومَسكنًا يأوون إليهِ يومَ القيامةِ.ويُستثنى مِن هذا الوعيدِ والتَّهديدِ: مَن عَجَزَ عَنِ الهجرةِ مِنَ الرِّجال والنِّساءِ والصِّغارِ، الّذين لا يَقْدِرُون على دَفع الظُّلم عَن أَنْفُسِهم، ولا يَجِدُونَ أسبابَ الهجرة وما تتَوَقَّفُ عليهِ، فهذا الصِّنْفُ مِنَ الضُّعفاء هُم الّذين يَعْفُو اللّهُ تعالى عَنْهُم؛ لِعلمِه سبحانه بحقيقةِ حالِهم، وكانَ اللّه ﷻ مُتجاوزًا عَنِ السَّيِّئاتِ ساترًا لها[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو).
(2) ابن سِيده، المخصَّص: (عفو).
(3) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عفو).
(4) الشَّوكَانّي، تحفة الذَّاكرين، ص: 459.
(5) ابن الأثير، النّهاية: (عفا).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 9/100 - 111، ومكيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 2/1440 - 1441، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1817، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 94.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَةُ الفِعْلِ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ بَيْنَ الماضَوِيَّةِ وَالمُضارَعِيَّةِ:

التَّحْذِيرُ مِنْ تَرْكِ الهِجْرَةِ لِلْقَادِرِ عَلَيْها

الفِعْلُ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ متردِّدٌ بين دَلالتَين[1]: إحداهما: أَنْ يَكُونَ فعلًا ماضيًا لَم تَلحقْهُ علامةُ تأنيثٍ؛ لأنَّ لفظَ الملائكةِ مؤنَّثٌ تأنيثًا غيرَ حقيقيٍّ. والأخرى: أن يكونَ فعلًا مضارِعًا، حُذفت إحدَى تاءَيْهِ تخفيفًا، والأصلُ: (تَتَوَفَّاهُمْ).وعلى الدَّلالَةِ الأُولَى؛ تكونُ الآيةُ إخبارًا عن حالِ أقوامٍ مَضَوا وانقرضُوا، وفيه تعريضٌ على جهةِ التَّحذير لِمَنْ يصنَعُ مثلَ صنيعِهِمْ، أو يكونُ الفِعْلُ الماضِي مُرادًا به الاستقبالُ، لتحقُّقِ وجودِ مَنْ هُوَ بهذا الوصفِ، وإنْ لم تُعَيَّنْ أشخاصُهُمْ.وعلى الدَّلالةِ الأخرى؛ تكونُ الآيةُ عامَّةً في حقِّ كلِّ مَنْ كان بهذا الوصفِ، وحَذْفُ التَّاءِ مِنْهُ مَع كونِه مِنْ بابِ التَّخفيفِ، إلَّا أنَّ فيهِ إشارةً أيضًا إلَى ما كان عِنْدَهُم مِن نَقْصِ بعضِ المعاني، بما تركُوه مِنَ الهجرةِ إلى أرضِ الإسلامِ، فَنَقْصُهم المعنويُّ دلَّ عليهِ نَقْصُ بناءِ الفعلِ، دَلالةً على جهةِ الرَّمْزِ والإيماءِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ دُونَ (يَمُوتُونَ) أَوْ (يُتَوَفَّوْنَ):

فَظَاعَةُ حَالِ تَارِكِي الهِجْرَةِ مَعَ القُدْرَةِ عليها، وسوء مصيرهم عِنْدَ الممات

قولُ اللهِ تعالى: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أيْ: تُميتُهم وتَقبِضُ أرواحَهُمْ، فالمعنى: إنَّ الّذين يموتُونَ حالَ كونِهم ظالِمِي أنفسِهم، وعُدِلَ عَنِ التَّعبير بـ (يموتُونَ) أو (يُتَوَفَّوْنَ) إلى ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ ليكونَ ذلكَ وسيلةً لِبيان فظاعةِ فِتنَتِهم عندَ الموتِ[2]؛ لأنَّ بناءَ الفعل ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ يقتضي إظهارَ فاعلِ التَّوفِّي؛ وهو هُنا: الملائكةُ، وفيهِ مِن إدْخَالِ الرَّوْعِ والمهابَةِ ما فِيهِ، إذ ملائكة العذاب سوف لا يترفّقون

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/195، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/345، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/372، وأبو زهرة: زهرة التَّفاسير: 4/1817.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/173.

بهذا الصّنف من النّاس، وبالتّالي فإنّ عذابهم الذّي سيكون في النّار، يبدأ منذ لحظات الوفاة، فيخرجون من الدّنيا وهم يوبّخون، ويغلظ لهم الملائكة الشّداد الغلاظ في القول، فتبدأ معاناتهم منذ ذلك الحين.

ورود الجَمْعِ مُرادًا بِهِ المُفْرَدُ، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

عِظَمُ شَأْنِ مَلَكِ المَوْتِ، الّذي يباشر خروج الرّوح

لفظ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في قولِ الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ جمعٌ يُرادُ به المفرَدُ؛ لأنَّ الّذي يُباشِرُ التَّوفِّي هو مَلَكُ الموتِ، كما قال الله تعالى: ﴿۞قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السّجدة:]، وإطلاقُ الجَمْعِ على الواحدِ يُقصَدُ به تفخيمُ شأنِ ملَكِ الموتِ[1]، ويُحتَمِلُ أن يكونَ الجمعُ باقيًا على أصلِ دَلالَتِهِ، وتكون اللَّامُ فيه لِلْعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ: الملائكةُ المعاوِنُونَ لملَكِ الموتِ في قبضِ الأَرْوَاحِ[2]، لا جميعُ الملائكةِ.

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الجُمْلَةِ بِـ﴿إِنَّ﴾، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

بَشَاعَةُ المُخَالَفَةِ بِتَرْكِ الهِجْرَةِ إلى حيث الأمان على العقيدة

أُكِّدتِ الجملةُ في قَوْلِ الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ اهتمامًا بمضمونِ الخَبَرِ؛ لِما فيه مِن بشاعَةِ المخالفةِ وسوءِ العاقبَةِ، ولا يُرادُ به رَدُّ إنكارِ منكِرٍ، ولا تردُّدِ شاكٍّ، "وفي خبر ﴿إِنَّ﴾ هذه ثلاثة أوجه، أحدها: أنّه محذوفٌ تقديرُه: إنَّ الّذين توفّاهم الملائكةُ هَلَكوا، والثّاني: أنّه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ودخلت الفاءُ زائدةً في الخبر تشبيهاً للموصول باسم الشّرط، والثّالث: أنّه ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾، ولا بدّ من تقدير العائد أيضاً أي: قالوا لهم كذا، و﴿فِيمَ﴾ خبر ﴿كُنتُمْ﴾ وهي (ما) الاستفهاميّة حُذِفت ألفها حين جُرَّتْ"[3].

(1) الزُّحَيلّي، التّفسير المنير: 5/226.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/185.
(3) السّمين، الدّر المصون: 4/78.

دَلَالَةُ تَعْرِيفِ الِاسْمِ المَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

بَيانُ سُوءِ عَاقِبَةِ مَنْ لَمْ يُهَاجِرْ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ هَذَا المَسْلَكِ

تعريفُ الاسْم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يَحتَمِلُ أن يكونَ لِلْعهدِ، والمقصودُ به: أناسٌ معيَّنُونَ، تركُوا الهجرةَ من بلاد الكُفْرِ إلى بِلادِ الإِسْلَامِ مَعَ عدمِ تمكُّنِهم من إظهار دِينِهم، ويُؤيِّدُهُ حَمْلُ الفعْلِ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ على معنى المُضِيِّ - على ما تقدَّمَ قريبًا - .ويَحتمِلُ أن يَكُونَ التَّعريفُ لِلْجِنْسِ المفيدِ العمومَ، ويُقوِّيه حملُ الفعلِ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ على المُضَارِعيَّةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ، في قوله: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾:

الِاسْتِمْرَارُ عَلَى الظُّلْمِ يُوجِبُ التَّغْلِيظَ فِي العُقُوبَةِ

جاء الحالُ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ اسمًا، ولم يردْ فِعْلًا، بِأَنْ يُقَالَ: (وقد ظَلَمُوا أنفسَهم)؛ لِلْإِيماء إلى أنَّ ظُلْمَهُم كان مُسْتَمِرًّا، كما يدلُّ على ذلكَ سِياقُ الذَّمِّ، فموجِبُ العقوبةِ والزَّجْرِ ثابتٌ ولم يكُن عارِضًا، ولذا اشتدَّ عَلَيْهِمُ الوَعيدُ، حينما وُوجهوا بالحجّة الدّامغة، والدّليل الواضح من فعلهم، وقد أقرّوا بذلك، وكانت حجّتهم في التّبرير داحظة.

دَلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾:

التَّقْصِيرُ فِي إِقَامَةِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ مُوجِبٌ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ

الاسْتِفْهَامُ في قولِ الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ يُرادُ به تَقْرِيعُهم وتوبيخُهم، بتَقْصِيرِهم في إِظْهارِ إِسْلامِهم، وإقامةِ أحكامِهِ وشعائره[1]، لا حقيقةُ الاستعلامِ.

ولا يُشْكِلُ عليه أنَّ المُتَوَفَّيْنَ أجابُوا عَنْ سؤالِ الملائكة، وسُؤالُ التَّوبيخِ لا يفتَقِرُ إلى جوابٍ؛ لأنَّ قولَهُم: ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُحاولَةٌ مِنْهُمْ لإقامةِ عُذْرٍ، يُزيلُ عَنْهُمُ التَّوبيخَ.

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابُه: 2/95، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/346، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/372، والآلوسّي، روح المعاني: 3/121.

سَبَبُ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ عَمَّا قَبْلَها:

تَثْوِيرُ فِكْرِ المُتَلَقِّي لِمَعْرِفَةِ الجَوابِ، مِن إعجاز الخطاب

فُصِلَتِ الجُملةُ ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ عمَّا قبلُ؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، فإنَّ الجملةَ السَّابقةَ، وهي قولُ اللهِ سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ فِيمَ كُنتُمْۖ﴾ تبعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا؛ وهو: ماذا قالَ أُولَئِكَ المُتوفَّوْن في الجَوَابِ؟ فَقِيلَ: ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾[1].

دَلَالَةُ الألف واللَّامِ في قوله ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾:

مِنْ شَأْنِ الواقِعِ في المُخالَفَةِ المُبالَغَةُ في إبْرازِ عُذْرِهِ

(الْ) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ سُبحانه: ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ يُرادُ بها العهدُ العِلْمِيُّ، والمقصودُ: أرضُ الكُفَّارِ الّتي لم يُفارقُوها بالهِجْرَةِ عنها إلى أرض الإسلام، وليس المرادُ أنَّهم كانُوا مُسْتَضْعَفِين في عمُوم الأرض، بدَليلِ قَوْلِ المَلَائِكَةِ لَهُمْ بعدُ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، وكأنَّهم أَطْلَقُوا الأرضَ في قولِهم: ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ لِلْإِشَارةِ إلى أنَّها لكثرة الكُفَّارِ فيها هي الأرضُ كُلُّهَا[2]، أو النُّكْتَةُ في ذلك: المبالَغَةُ في إظهار عُذْرِهم، حتَّى كأنَّ الهجرةَ في حقِّهم ليس لها فائدةٌ؛ لوجودِ الاسْتِضْعَافِ في الأرض كُلِّها.

دَلَالَةُ الاسْتِفْهَامِ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾:

المُعْتَذِرُ بِعُذْرٍ غَيْرِ صَحِيحٍ يَسْتَحِقُّ التَّبْكِيتَ وَالتَّوْبِيخَ

الاسْتِفْهَامُ في قولِ اللهِ سُبحانه حكايةً عَنِ الملائكةِ قولَهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ يُرادُ به التَّبكيتُ؛ لردِّ ما اعْتَذَرُوا به وتكذيبِهِ؛ إذْ إنَّ ما اعتذروا به غَيرُ صحيحٍ، فقد كانَت لَهُمُ القُدْرَةُ على الخُرُوج إلى بَعْضِ الأَقْطَارِ الّتي يأمنُونَ فيها على دِينِهم[3]، "فقالوا: كُنَّا مستَضْعَفِين اعْتِذاراً عمَّا وبَّخُوا بِهِ، واعتِلالاً بأنَّهم ما كَانُوا قادِرِين على المُهَاجَرة، ثمّ إنّ المَلَائِكَة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/222، والآلوسّي، روح المعاني: 3/121.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/737.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/41، والمظهري، التَّفسير المظهريّ: 2/208.

لم يَقْبَلُواْ منهم هذا العُذْر؛ بل ردُّوه عَلَيْهِم، فقالوا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ يعني أنكم كنتم قادرين على الخُرُوجِ من مَكَّة إلى بَعْضِ البِلاَدِ التي لا تُمْنَعُون فيها من إظْهَار دِينكُم، فبقيتم بين الكُفَّار لا للعجز عن مُفَارَقَتِهِم، بل مع القُدْرَة على المُفَارَقَة"[1].

تَضْمِينُ فِعْلِ ﴿فَتُهَاجِرُواْ﴾ مَعْنى الضَّرْبِ في الأرض:

وَفْـرَةُ المَعَـانِي وَكَـثْرَتُـهَـا فِـي أُسْـلُـوبِ التَّضْمِينِ

الفعْلُ ﴿فَتُهَاجِرُواْ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، الأصلُ أن يُعدَّى بـ (إلَى)، فمقتضى الظَّاهر: ألَم تكن أرضُ اللّه واسعةً فتهاجروا إليها، وفي هذا مَسْلَكَانِ: أحدُهما: أن يكونَ من بابِ تناوُبِ الحروف، وأنَّ (في) بمعنى (إلَى)[2].والآخَرُ: أن يكونَ ذلك لِلْإشارة إلى تَضمينِ الفعل معنَى فعلٍ آخرَ، يصلُح لتعديةِ الحرفِ المذكورِ؛ وهو الضَّرْبُ، فيكون المعنى: ألم تكنْ أرضُ اللّهِ واسعةً فتُهاجِرُوا ضَاربِين في الأرض، إلى حيثُ يَزُولُ عَنْكُمُ المانعُ الّذي يمنعُكم مِن إظهار دينِكُم، وإقامةِ شَرَائعِهِ[3]، وقال أبو البقاء: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ استفهام بمعنى التّوبيخ، ﴿فَتُهَاجِرُواْ﴾ منصوبٌ على جواب الاستفهام، لأنَّ النّفيَ صار إثباتاً بالاستفهام[4].

دَلَالَةُ اسمِ الإِشَارَةِ عَلَى تَمْيِيزِ المُشَارِ إِلَيْهِمْ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ:

بُعْدُ مكانة تَارِكِي الهِجْرَةِ فِي الشَّرِّ، حيث تشبّثوا بدار الكُفْرِ

في التَّعبير عن تاركِي الهجرةِ من بلادِ الكُفر إلى بلاد الإسلام باسم الإشارة (أولئك) في قوله سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ﴾: تنبيهٌ على بشاعةِ ما اتَّصفوا به وشناعتِه، بِحَيثُ تَمَيَّزوا عمَّنْ عدَاهُم أكمَلَ تمييزٍ، وَلِلْإِشْعار بأنَّهم جديرون بالحُكم الوارِدِ بعدَهُ؛

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 6/590.
(2) ابن أبي زَمنين، تفسير القرآن: 1/400، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 457، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/506.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/373.
(4) السّمين، الدّر المصون: 4/79.

للصِّفاتِ المذكورةِ قبلُ[1].وقد جاءَ اسمُ الإشارةِ (أولئك) لِلْبَعِيد؛ إِشْعَارًا إلى بُعْدِ مكانتِهِمْ في السُّوء[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْتِعارَةِ في قولِهِ: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

أصلُ كلمةِ المَأْوَى: الموضِعُ الّذي يُنْصَرَفُ إليه ويُقامُ فيه[3]، وذلك يتضمَّنُ معنى الاستقرارِ والاطمئنانِ، فالتَّعبيرُ عَن جهنَّمَ بأنَّها مأوَى في قول الله تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ هُوَ مِن بابِ الِاسْتِعَارَةِ التَّهكُّميَّةِ، وذلك أشدُّ وَقْعًا على النُّفوسِ؛ لِمَا فيها مِنَ الإنْزالِ لِقَدْرِ المخاطَبِ والحَطِّ منهُ.

مِنْ أَنْواعِ العَذابِ النَّفْسِيِّ التَّهكُّمُ بِالمُعَذَّبِ

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ فِي اسْتِيعابِ الأَقْسَامِ:

اسْتِثْناءُ العاجزينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساء مِنَ المُؤاخَذةِ بتَرْكِ الهجرةِ في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، جارٍ وَفْقَ الظَّاهرِ؛ لأنَّ الرِّجالَ والنِّساءَ مِن شأنِهم الوقوعُ في الإثمِ والمُخالفةِ؛ لكونهم مُكَلَّفين، إلَّا أنَّ استثناءَ الوِلْدَانِ مَعَ عدمِ توجُّهِ الوعيدِ إليهم أصلًا - لكون قَلَمِ المُؤاخذةِ مرفوعًا عَنْهُمْ - مُخالفٌ لمُقتَضى الظَّاهرِ. وإيرادُ الوُلدانِ ههُنا لاستيعابِ أقسامِ النَّاسِ رجالًا ونساءً وَوِلْدانًا؛ وهو أحدُ صُوَرِ أسلوبِ التَّقسيم[4] في عِلمِ البَديعِ، وفي فائدةِ ذَلكَ مسالِكُ[5]:

الضّعف البشريّ يطال كلّ أصناف الجنس، ولكن لا تكليف على غير مكلّف

الهجرة مطلب كونيّ لا تخلو منه مصْرٌ ولا دهْرٌ:

مردّ التّسريح بها إلى أمور: أوَّلُها: أنَّ المرادَ المبالغةُ في بيانِ وجوبِ الهجرةِ مِنْ بلادِ الكفرِ إلى بلادِ الإسلامِ، حتَّى كأنَّ ذلك - لِتأكُّدِهِ - ممَّا أُمِرَ الولدانُ به.وثانيها: أنْ يكونَ المُرادُ بالوِلْدانِ: مَنْ

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/277.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/373.
(3) ابن أبي نصر الحُمَيْدِيّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(4) المرادُ به ههنا: استِيفَاءُ أقسَامِ الشَّيءِ بالذِّكر، وله صُوَرٌ أُخْرَى، يُنظر: الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/608.
(5) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/170، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1820.

قَرُبَ عَهدُه بالصِّغَرِ، مِنْ بابِ المجازِ المُرسَلِ بعَلاقةِ اعتبارِ ما كانَ.

وثالثُها: أنْ يكونَ ذلكَ من بابِ الكِنايةِ؛ إذِ المقصودُ تكليفُ أولياءِ الولدانِ بإخراجِهم مِنْ ديارِ الكفرِ؛ لعَجْزِهم عَنِ الخُرُوجِ على سَبيلِ الانفرادِ.ورابعُها: أنَّ ذلكَ للإشارةِ إلى أنَّ عَجْزَهم عجزٌ لوالِديهم من الرِّجالِ والنِّساءِ؛ "لأنَّ مِنْ أقوى أسبابِ العَجْزِ وعدمِ الحُنْكَةِ كونَ الرِّجالِ والنِّساءِ مَشْغُولِين بأطفالِهم، مَشْغُوفِين بِهِم، فيَعجزُون عَنِ الهجرةِ بسببِ خوفِ ضَياعِ أطفالِهم وولْدانِهم"[1].

وُجُوبُ الهِجْرَةِ مِنْ بِلَادِ الكُفْرِ إِلى بِلَادِ الإِسْلَامِ، حلٌّ شرعيٌّ حكيم

بَلَاغَةُ الِاسْتِئْنَافِ البَيانِيِّ في قولِهِ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾:

قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ تَوضيحًا لمَعْنى الاستضعافِ المَذكورِ قبلُ، وذلك أنَّ قولَ اللّه سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ يُورِثُ في نَفْسِ المُتلقِّي سؤالًا؛ وهو: ما حقيقةُ الاستضعافِ الّذي اسْتُثْنِيَ مَنْ اتُّصِفَ به من الوعيدِ الشَّديدِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، ولِئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ استضعافَ هؤلاءِ كاستضعافِ الطّائفةِ الأُولى الّتي وبَّخَتْهم الملائكةُ، وتُوُعِّدُوا بالعذابِ في جهنَّمَ[2].

الِاسْتِضْعَافُ الّذِي به العُذْرُ، انعدام أَسْبابِ الهِجْرَةِ وَآلياتها

نُكْتَةُ التَّنْكِيرِ في قولِه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾:

تَنْكِيرُ ﴿حِيلَةً﴾ وَ﴿سَبِيلًا﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ يُرادُ به العُمُومُ؛ لوُقوعِهِ في سياقِ النَّفْيِ، والمعنى: أنَّهم لا يَجِدُونَ أيَّ حِيلةٍ، ولا يَهْتَدُون إلى أيِّ سَبيلٍ، وفائدتُهُ: بيانُ خُطورةِ تَرْكِ الهِجْرَةِ، حتَّى إنَّهُ لا تُرجَى النَّجاةُ مِنْ تَبِعاتِ هذا التَّرْكِ إلَّا مَنْ سُدَّتْ عنهُ كلُّ سُبُلِ الخَلاصِ.

خَطَرُ تَرْكِ الهِجْرَةِ مِنْ بِلَادِ الكُفْرِ لِمَنْ لا يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِ دِينِهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/42.

(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 3/277.

سِرُّ إيرادِ ﴿عَسَى﴾ في حقّ المَعْذُورِينَ حَقِيقَةً:

عِـظَـمُ قَـدْرِ الهِجْرَةِ وَخَطَرُ التَّسَاهُلِ فِي استثناء العُذْرِ بِتَرْكِها

النُّكْتَةُ في إيراد ﴿عَسَى﴾ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ مَعَ أنَّ الكلامَ في حَقِّ المَعذورينَ حقيقةً؛ لِلْإشارة إلى أنَّ تَرْكَ الهجرةِ أمرٌ مُضيَّقٌ لا توسعةَ فيه، حتَّى إنَّ المَعذورَ البَيِّنَ عُذْرُهُ له أنْ يقولَ: عَسَى اللّٰهُ أنْ يعفوَ عنِّي، ولا يَجزِمُ به، فما الظَّنُّ بغيره؟![1]، وفي هذا تَعظيمٌ لوجوب الهجرةِ، حتَّى إنَّ مَنْ تركَها مع تَحقُّقِ عَدَمِ وجوبِهَا عليه لعُذره ينبغي أنْ يَعُدَّ ذلك ذَنْبًا يَطلُبُ مِنَ اللّٰه تعالى العفوَ عنه على جهةِ الرَّجاءِ والطَّمَعِ، لا الجَزْمِ والقطعِ[2].واستظْهَرَ الفَخْرُ أنَّ وَجْهَ إيرادِ ﴿عَسَى﴾: "أنَّ المُستَضْعَفَ قَدْ يَكُونُ قَادِرًا على ذلك الشَّيْءِ مَعَ ضَرْبٍ مِنَ المَشَقَّةِ، وتمييزُ الضَّعْفِ الّذي يَحصُلُ عندَه الرُّخصةُ عَنِ الحَدِّ الّذي لا يَحصلُ عندَه الرُّخْصَةُ شاقٌّ ومُشْتَبِهٌ، فرُبَّما ظَنَّ الإنسانُ بنفسِه أنَّه عاجزٌ عَنِ المُهَاجِرَة، ولا يكونُ كذلك، ولا سِيَّما في الهجرة عَنِ الوطنِ؛ فإنَّها شاقَّةٌ على النَّفْسِ، وبسبَبِ شدَّةِ النَّفْرَةِ قد يَظُنُّ الإنسانُ كونَه عاجزًا مع أنَّه لا يكونُ كذلك، فَلِهَذا المعنى كانتِ الحاجَةُ إلى العَفوِ شديدةً في هذا المَقام"[3].

وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ عفوَ اللّٰه تعالى عن تَركِهم الهجرةَ عَفْوٌ عزيزُ المَنالِ، فحالُهُم مَعَ عَفْوِ اللّٰهِ سبحانه، كحالِ مَن لا يَقْطَعُ بحُصولِ العفوِ عنهُ، والمرادُ: تَضييقُ تَحقُّقِ عُذْرِهِمْ؛ لِئلّا يتسَاهلوا في شُرُوطِه؛ اتِّكالًا على عفوِ اللّٰه سبحانَه[4].

اتِّـصـافُ اللّٰـهِ تَـعَـالَى بِالعَفْوِ وَالمَـغْـفِـرَةِ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ

فَائِدَةُ ذِكْرِ ﴿وَكَانَ﴾ في قولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾:

ذِكْرُ ﴿وَكَانَ﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ دُون قولِه: (واللّٰه غفورٌ رحيمٌ)؛ لِلْإشعارِ بأنَّ اتِّصافَهُ سُبحانه بهاتَيْن

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/556.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/224.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/134.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/177.

الصِّفَتَيْن، قَبْلَ خَلْقِ الخَلْقِ، ثمَّ إنَّ مِنْ شأنِهِ وعادتِهِ (ﷻ)، أن يعفوَ ويغفرَ[1]، وثَمَّ نُكْتَةٌ صوتِيَّةٌ في ذكر ﴿وَكَانَ﴾، وهو التَّناسُبُ الصَّوتِيُّ؛ إذْ ذكرُ ﴿وَكَانَ﴾ أَوجَبَ نصبَ خبَرِها، وهذا أنسبُ للآياتِ قبلُ وبعدُ.

نُكْتَةُ التَّذْيِيلِ في قولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ إطنابٌ بالتَّذْييلِ[2]، وهوَ تَذْييلٌ جارٍ مَجرى المَثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ مِن دُون افتقارٍ إلى ما قبلَهُ في بيانِ المرادِ مِنْهُ، وفائدتُهُ: تقريرُ ما قبلَهُ وتأكيدُهُ بأتمِّ وجهٍ وأعمِّهِ؛ فإنَّ ما قبلَهُ فيه عفوُ اللهِ سبحانه على المَعذورين بتَرْكِ الهجرةِ، وهذه الآيةُ عامَّةٌ فيهم وفي غيرِهم[3]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ العفوَ المَرْجُوَّ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ هو عَفْوٌ واقعٌ؛ إذ إنَّه (جلَّ وعلا) لم يزَلْ مُتَّصفًا بصِفَةِ العَفْوِ والمغفرةِ[4].

عُمُومُ عَفْوِ اللهِ تعالى وَمَغْفِرَتِهِ

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قولِهِ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾:

وَرَدَ خبرُ ﴿عَسَى﴾ في آية سورة النِّساء بالعفو، فقال سبحانه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾، ثُمَّ ذُيِّلَتِ الآيةُ باسْمَيِ اللهِ: العَفُوِّ والغفورِ، فقال ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾، بخلافِ آيةِ التَّوبةِ؛ فقد جاء خبرُها بذِكْرِ التَّوبةِ، فقال ﷻ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 102]، وذُيِّلَتِ الآيةُ باسْمَيِ اللهِ: الغَفورِ والرَّحيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: 102]. ووَجْهُ المَغايرةِ بينَهما: أنَّ آيةَ النِّساءِ تَقَدَّمَها قولُه جلَّ وعلا: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، فلمَّا كان هؤلاءِ قد قَبِلَ اللهُ (ﷻ) عُذرَهم، فعَفا عنهم؛ ناسَبَه قولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾، ولمَّا كان مَنْ

دِقَّـــةُ اخْـتِـيـارِ الأَلْـــفـــاظِ في النَّظْمِ القُرْآنِيِّ، من بلاغة القرآن وتفرّده

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 3/290 - 291.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/224.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 3/278.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/43.

عَفا عَنْ ذَنْبٍ في وقتٍ قد يُعاقِبُ عليهِ في وقتٍ آخرَ؛ ناسبَه أَنْ يُبيِّنَ اللّٰهُ تعالى أنَّ ما عفا عنه يُزيلُهُ، بحيثُ لا يَذكرُهُ أصلًا، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.وأمَّا آيةُ التَّوبةِ، فصُدِّرَتْ بقولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّـًٔا﴾، فلمَّا كان الاعترافُ بالذَّنبِ أوَّلَ طريقِ التَّوبةِ؛ ناسَبَه قولُهُ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، ولمَّا كان مُقتضى الظَّاهرِ أنْ يُذكَرَ بعدُ اسمُه التَّوابُ، لكنْ أُريدَ تَبشيرُ هؤلاءِ بمغفرةِ اللّٰهِ تعالى لِمَا تابوا منهُ، وما لم يَتُوبُوا منه؛ ناسَبَ ذلك أن يُذكرَ اسمُه الغَفُورُ، ثُمَّ لمَّا كان مَنْ غَفَرَ السَّيِّئاتِ قد لا يُثيبُ على الصَّالحاتِ؛ كان الأوفقُ أن يُبيِّنَ أنَّهُ سُبحانه يُثيبُ على الصَّالحِ، وهو مِن مُقتضياتِ رحمتِهِ تعالى، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَفَاة والمَوْت:

الفرقُ بينَهما من وَجْهَيْنِ: أحدها: أنَّ أصلَ الموتِ في اللُّغة: ذهابُ القوَّة من الشَّيءِ[1]، وأصلَ الوَفاةِ: الإكمالُ والإتمامُ[2]. ثانيها: أنَّ الموتَ عند الإطلاقِ يُرادُ به: قَبضُ الرُّوحِ والنَّفْسِ، وأمَّا الوفاةُ؛ فيُطلَقُ على استكمالِ الأجلِ، واستكمالِ الرِّزْقِ واستيعابِهِ.وبهذَين الوجهَين يتبيَّنُ أنَّ بينَ الموتِ والوفاةِ عُمومًا وخُصوصًا وَجْهيًّا؛ فالوفاةُ أعمُّ مِنَ الموتِ مِن وجهٍ؛ إذ الوفاةُ تُطلَقُ على استكمالِ الأجلِ – وهو الموتُ – وعلى غيرِه، ومنهُ سُمِّيَ النَّومُ وفاةً؛ لأنَّ العبدَ لا ينامُ إلَّا إذا وفَّى اللّٰهُ تعالى له ما كتبَهُ له في ذلك اليومِ مِن رزقٍ، والموتُ أعمُّ مِنَ الوفاةِ من وجهٍ آخرَ؛ إذ إنَّ قَبْضَ الرُّوحِ لا تَدُلُّ على استكمالِ الأَجَلِ – وإنْ كان الأصلُ دَلالتَها على ذلك – ، فإنَّ اللّٰه تعالى قال: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: 243]، فأماتَهم اللّٰهُ تعالى، ثُمَّ أحياهم لِيَسْتَكْمِلُوا آجالَهُم[3].

الوِلْدان والأَطْفال:

الوِلْدان جمعُ وَليدٍ؛ وهو مَن قَرُبَ عهدُه بالولادةِ، ويكونُ ذلك قبل أن يَطُرَّ شاربُهُ، فإذا طرَّ شاربُهُ سُمِّيَ غلامًا، ولقُرْبِهم بعهدِ الولادةِ استُعمِلَ هذا اللَّفظُ – الوِلدانُ – في

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وفى).
(3) زيدان، الفروق اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 761.

مقامات الضَّعف؛ لأنَّهم لا يزالون مُحتاجين إلى رعايةٍ، كما في قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النّساء: 75]، وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾. ولكونِ الولدانِ في أصغرِ الأطوارِ العُمريَّةِ قال الله تعالى في وصف القيامة: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [المزّمّل: 17] أي: هو يومٌ يجعل أصغر النَّاسِ – وهم أبعدُ النَّاس عن الشَّيْبِ – شيبًا؛ لشدَّة هولِهِ وكربِهِ.أمَّا الأطفالُ؛ فجمعُ طِفْلٍ، وسُمُّوا بذلك لنُعومةِ أظفارِهم، وبَشَرَةِ أجسادِهم ولينِها، فهم لا يَزالُ يُنظَرُ إليهم كأنَّهم رُضَّعٌ في أحضان أمَّهاتهم، ولذا ذَكَرَهم الله تعالى في هذا السِّياقِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحجّ: 5][1].

السَّبيل والطَّريق:

السَّبيلُ هو الطَّريقُ الّذي فيه سهولةٌ، ويُطلَقُ على الطّريق المسلوكَةِ، وَمِنْهُ قولُهم: سبيلٌ سابلَةٌ، أيْ: مَسلوكَةٌ، ولذا اقترنَ السُّلُوكُ مع السَّبيلِ كثيرًا، كما في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النّحل: 69]، وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: 53].ولسهولَةِ سُلوكِ السَّبيلِ، وردت في القرآنِ الكريم كثيرًا مُرادًا به: ما يُسلَكُ لنيلِ الخيرِ، وأمَّا قولُ الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، كأنَّ المعنى: أنَّهم لا يَهْتَدُونَ إلى طريقٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ من خلالِهِ الخلاصُ من أذى الكُفَّار وقَهْرِهِم.وأمَّا الطَّريقُ؛ فأصلُه مِنَ الطَّرْقِ بالأَرْجُلِ، ثُمَّ استُعيرَ لكلِّ مَسْلَكٍ يَسلُكه الإنسانُ، وهو لا يَستلزمُ السُّهولَةَ كالسَّبيلِ، والغالبُ في الطَّريقِ إذا أُريد به الخيرُ؛ قُرِنَ بوصفٍ أو إضافةٍ تُخَلِّصُ معناه لذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: 30]، فالسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ؛ لأنَّ السَّبيلَ يَستلزمُ السُّهولةَ بخلاف الطَّريقِ فلا يستلزمُهَا؛ فهو أعمُّ بِهَذَا الاعتبارِ[2].

(1) زيدان، الفروق اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 661 - 664.

(2) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 313، والدوري، دقائق الفروق في البيان القرآنّي، ص: 139 - 142، ومحمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 281 - 284.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»